طرائف من العصر المملوكي

سكردان السلطان

او العدد سبعة

للاستاذ محمود رزق سليم

حيا الله مصر وبياها ، فقد كانت — ولا تزال — البلد الحنون العاطف المضياف لكم فاء اليها من لاجئ مجاهد وسكن اليها من غريب خائف مطارد ، ضاق به صدر بلاده ، ونبا به المقام

الاسلامية بجامعة فؤاد الأول وعضوا لشيوخ من أحرص الاساتذة على إعداد الطلاب لمواجهة الجمهور حتى في أعمق البحوث الفلسفية وكان ذلك من مقاييسه المشهورة في تقديره لدرجة النجاح

وبعد فقد تبين لنا مم تأتلف العناصر العامة للثقافة الشعبية ومدى أهمية العمل على اذاعتها في الشعب على ضوء الخبرة النظرية والعملية ، ولا شك في أن مضاعفة الجهود ستأتي بنتائج مرضية ، يتوق اليها المصلحون ، ويرضاها الغيورون .

فاذا كان ذلك كذلك وجب تركيز هذه الآفاق في يد مؤسسة الثقافة الشعبية لأن ذلك من صميم رسالتها ، أما غيرها فيتخذ من هذه الرسالة تكلة لنشاطه ، وليس ما يمنع مطلقا من الاستعانة بالخبراء في كل ميدان ، وامداد الشعب والقائمين على ثقافته بكل ما ينهضه بالبلاد إلى أوج الكمال ، حتى نكافح المرض بالرياضة ونقضي على الجهل بالعلم البسط اليسر ، ونستأصل الجريمة بتعاليم الدين وروائع الفن فلا ينخدع الفرد بالمبادىء الوافرة ، ولا تتسمم الجماعات بالافكار الفاسدة ، ولا يحرم الشعب الكريم من جهود ضحايا الفراغ .

محمد محمود زيتون

في وطنه ، فوسعت له في رحابها ، وأمرعت له من جنابها ، ولقيته لقاء الأم الرءوم ومدت له من حبال المودة ، ما آنس قلبه وأقر لبه ، واستل من بين جنبيه الخوف ، وأنزل فيه السكينة فنعم فيها بطيب عيش وبلهنية بال ، في غير من منة ولا استكثار غير راجية لقاء هذا إلا المودة والبر ، في غير عقوق أو مروق .

وقد عاونت الأحداث المعاصرة للعصر المملوكي على أن تصبح مصر — وكانت البلد الآمن الأمين ، على مابها — المهجر الموموق والمثابة المحبوبة لأبناء المسلمين والعرب في مشرق الأرض ومغربها فامتلأت فجاجها بالغرباء الراحلين اليها الساعين إلى أمانها الملتمسين الطمأنينة فيها ، المرتجين رغدها ورخاءها ، وجودها وسخاءها .

ويضيق صدر هذا المقال لو رحنا نحصي عدد هؤلاء الغرباء وننوه بشتى مشاركاتهم لهذا البلد في أدبه وعلمه مبينين كيف تأثروا بهما ، وأثروا فيهما ولعل لنا إلى ذلك عودة في القريب .

وأحد هؤلاء الغرباء ، شهاب الدين ابن أبي حجلة المغربي واسمه أحمد بن يحيى التلمساني . ولد عام ٧٢٥ هـ بتلمسان بالمغرب . ورحل الى الشرق فحج ، واستوطن دمشق زمنا ، ثم تحول إلى القاهرة ، فاتخذها دارا ، وظل حتى توفي عام ٧٧٦ هـ .

والفترة التي عاش فيها ابن أبي حجلة كانت فترة من الزمان خصبة منجبة ، حفلت بعلية من الفضلاء ، وحلبة سباقة من الأدباء ، فترة عاش فيها الجمال بن نباتة ، والصفي الحلي ، والصلاح الصفدي ، والزين بن الوردي ، وأبو بكر بن اللبانة ، والنور الاسمردي ، ثم البرهان القيراطي والعز الموصلي ، وغيرهم من أهل الأدب والشعر وهي أدسم الفترات في حكم الناصريين قلاوون وقد امتدت حتى عهد ابنه الناصر حسن .

وقد كان ابن أبي حجلة أديبا بارعا وشاعرا مبدعا ومؤلفا وجامعا . فلا غرابة أن ذكت نفسه ونشط بيانه وسط هذا الحشد العظيم من الأدباء ؛ ولا غرابة أن جمعت بينه وبين الكثير منهم وشائج العلم والأدب ؛ وهي أحنى وشيجة تجمع بين القلوب وتلائم بين النفوس .

وقد قيل إن ابن أبي حجلة كان يهوى إلى الحنفية ويقول انه حنفي ، ويدلف إلى الشافعية ويقول انه شافعي ، فكان يسامر

أهل الحديث ، ويسير في تيار كتب الصوفية حتى انه ولي احدى مشيخاتهم . ولعل ذلك من قلق الفن ، وهو يغرى بالتنقل ، أو من ظرف الأديب وحسن تأنيه ، ولبق الشاعر وطوع قوافيه

وقد كان ابن أبي حجلة شاعراتياها بالشعر ، يرفع صناعته فوق كل صناعة وله فى ذلك أدلة وبراهين ويزهى بما ينظمه ويفخر . سالكا فى أساليبه مسالك البديعيين من أهل عصره مولعا فى ذلك بابن نباتة شاعر جيله ، ذواقة نقادا . حتى لقد نعى على الصلاح الصفدى بعض شعره فقال مؤدبا :

ان ابن أيبك لم تزل سرقاته ... تأتى بكل قبيحة وقبيح
نسب المعانى فى النسيم لنفسه ... جهلا فراح كلامه فى الريح

وهو يشير بذلك إلى أبيات للصفدى قالها فى النسيم آخذا معناها من أبيات لمحى الدين بن عبد الظاهر .

هذا ، مع أن ابن أبي حجلة نفسه لم يخل شعره من السرقات شأنه فى ذلك شأن كثير من شعراء جيله ، إذ كانت السرقة الشعرية متمكنة من نفوسهم . ولعل ذلك كان بدافع من الدعاية أو برغبة فى التوسع فى التضمين . . .

ومهما يكن من شيء ، فلا بن أبي حجلة أكثر من ديوان شعرى . وكثير من شعره فى مدح النبي عليه السلام وقد عارض بهذا المديح قصائد ابن الفارض الشاعر الصوفي المشهور وقد كان ابن أبي حجلة كثير النقد له والنعى عليه

لم يقتصر ابن أبي حجلة على الشعر يعارض به أو يمدح ويقدح أو غير ذلك بل أقبل على الرسائل والمقامات والمقالات يدبجها ، وعلى المؤلفات يروضها ويعالجها ، حتى استقام له من ذلك جملة بارعة

ويبدو انه كان فطنا كيسا ، ولبقا مؤنسا ، عنده من بضائع الأيناس الف صنف وصنف . ولهذا استطاع أن يحكم صلته ببعض الأمراء ويسبق إلى رحابهم ويمدحهم بقصائده ويصف مروءتهم وشجاعتهم وحروبهم . وممن مدحه منهم الأمير سعد الدين بشير الجدار ، والأتابكي منجك ، والمقر السيفى يلبغا الناصرى مملوك السلطان حسن ، الأثير عنده وقد قال ابن أبي حجلة من قصيدة يمدح بها المملوك المذكور يصف شجاعته فى حروب أعدائه :

أمير جيش غدت فى كل نازلة ... لقومه فى رؤس القوم نزلات
ساقت عزائمه سحب الجيوش لهم ... وبرقها سيفه والرعد كوسات
لخيله وأعاديه اذا برزوا ... فى موقف الحرب كرات وفرات
خيل إذا قرنت آذانها ظهرت ... لنصر راكبها منها قرانات
كم صح من يلبغا جبر لقاصده ... لكن لجيش الأعادى منه كسرات

وقد حظى ابن أبي حجلة — فى هذا الزمان المستعجم — لدن سلطان عصره الناصر حسن حفيد قلاوون وقد كان السلطان حسن يهش للادب ويقدر الادباء . فألف له ابن أبي حجلة أكثر من كتاب . ومن بين ما ألف له كتابه المشهور « ديوان الصبابة » وأشار إلى ذلك بقوله فى سياق قصيدة مدح بها .

ولى فيه من غر التصانيف خمسة ... وهذا الذى طوق الحمامة عاشره

وقد كنى بالشطر الثانى من البيت عن كتابه « ديوان الصبابة » إذا أن الباب العاشر منه هو باب طوق الحمامة . وهذا الكتاب فى أخبار العشاق ومصارعهم وماجرى لهم من أحاديث وأشعار . وقد أحدث هذا الكتاب ضجة فى بلاد الأندلس وألف لسان الدين بن الخطيب كتابا على غراره جعله فى الحب الإلهى وقد سلك فيه مسالك الصوفية فزاق فى بعض عباراته بما حوسب عليه حسابا عسيرا .

ويمتاز ابن أبي حجلة بحسن ابتكار الموضوعات ولمعاته وطرافتها ، وابتكار الموضوعات ، فن دقيق من فنون التأليف تتغاير فيه الخواطر ، وله خطره وأثره ، إذ هو الموجه المؤلف من بعد ، والموحى اليه بشتيت أفكاره ، ومختلف تصوراته ، ومسالك عباراته

انظر الى ابن أبي حجلة ، وقد فطن إلى العدد « سبعة » ... فوضع فيه سفرا قيما أهداه إلى السلطان حسن وسماه « سكردان السلطان » ... فكان من جملة ما ألف له .

وسكردان معناه « وعاء السكر » والكتاب — حقا — لذيذ ممتع . وموضوعه — كما نوهنا — هو العدد سبعة . ويحار المرء — قبل قراءته — فيما سيكتبه هذا الرجل فى سفره عن هذا العدد . حتى إذا قرأه اتسع أمامه الأفق ، ورأى فى العدد سبعة معانى وخصوصيات ، ندت عن ذكائه ، وغابت عن خاطره . وإذا بالعدد سبعة أمام ناظريه يجمع من حوله ، شتى من معلومات كان يظنها متنافرة فألف بينها . ومتباعدة فلاءم بين شملها ، بكياسة وظرف ، وسياسة ولطف . وهذه هى عبقرية التأليف .

والمؤلف بين هـــذا الحشد الحافل من المعاني والأفكار والحوادث التاريخية والأدبية ، والنوادر . ونحوها ، له أسلوبه الخاص ، يضفي عليه من ذات نفسه ، ويسبغ فوقه من منهجه ، فيبدو فيه الحديث جديدا والغريب متأهلا ، والفج ناضجا ، والناعس العابس ، يقظا بساما .

والكتاب — قبل هذا — مصري في صميمه . فقد عنى المؤلف بإبراز حياة العدد سبعة في الديار المصرية ، مبينا ما لهذه الحياة من مناسبات وملابسات وصلات بها ، مدللا على أن لهذا العدد نصيبا من الوجود ضخما ، بهذه الديار ، وبينه وبينها رابطة وثيقة العرا . وإذا كانت الأعداد قد تفرقت في الأمصار ، واتخذ كل عدد منها لنفسه دارا ، فإن العدد سبعة قد اختار مصر دارا له .

وقد دلل المؤلف على ذلك كله بحوادث لا تدع مجالا للشك في صدق ما لاحظه على العدد سبعة ووجوده بمصر . والحوادث التي ساقها ، مع صدقها ، كثيرة . وهذا يدل على تقوب نظره وجليل ملاحظته .

وسواء أكان وجود العدد سبعة بالديار المصرية ، وبروزه في حوادثها ومناسباتها ، عارضا أم كان غير عارض ، فقد استطاع المؤلف — بكتابه هذا — أن يركز في الأذهان المعنى الذي ذهب إليه ، وهو أن العدد سبعة يحيا بالبلاد المصرية حياة موفقة سعيدة ، أكثر مما يحيا في غيرها من البلاد ، وإنه إلى ذلك أشرف الأعداد .

وقد دلل المؤلف على صحة نظريته بأدلة لا تحصى ، وهي ما بين حوادث تاريخية قديمة أخرى معاصرة ، ونوادر أدبية ، وغير ذلك . وقد نوهنا بأن هذه المعلومات قد لا يجتمع احداها بالأخرى — لأول وهلة — جامعة . ولكن المؤلف بلياقته ، وجد بينها آصرة قوية ، وهي العدد سبعة ...

وإليك مثلا . فأية علاقة بين الحاكم بأمر الله الفاطمي ، ويوسف الصديق عليه السلام ، سوى أن كلا منهما من عظماء الرجال الذين مروا بمصر في تاريخها الطويل الحافل ؟ ولكن أين أبي حجلة اق علاقة بينهما أخرى ... وهو العدد سبعة ، فإنه ذو صلة بالرجلين وثيقة ..

فالحاكم بأمر الله ، لبس الصوف سبع سنين ، وأوقد الشمع ليلا ونهاراً سبع سنين ، ومنع النساء من الخروج إلى الطرقات ليلا ونهاراً سبع سنين وسبعة أشهر . وكان يقرأ نسبه على المنبر كل سبعة أيام ، وأنه قتل وهو يلبس سبع جبات مزررة عليه ...

أما يوسف عليه السلام ، فقد رأى الرؤيا وهو ابن سبع سنين ، وعاش في بيت الذي اشتراه من مصر سبع سنين ، ولبث في السجن سبع سنين . وقد رأى ملك مصر في أيام رؤياه المشهورة وفيها سبع بقرات ، وسبع سنابل . ثم جاءت بعدها سبع سنين زرعت دأبا ، واختزنت غلتها بإشارة يوسف . ثم جاءت من بعدها سبع السنين العجاف المجدبة . وهكذا ...

وبهذه المناسبة نذكر أن ابن أبي حجلة ، انتهز فرصة حديثه عن يوسف الصديق ، وعرض لتفسير سورة يوسف ، فشرحها برمتها تقريبا ، وفسر الكثير من غامض آيها ، على وجوهها العدة ، معتمداً آنا على أقوال المفسرين ، وآنا على نفسه ورأيه ، مستطرداً في سياق ذلك إلى أقوال طريفة وآراء جديرة بالنظر .

وهكذا استطاع ابن أبي حجلة أن يتخذ من العدد سبعة تكأة قوية يستند إليها في عرض جملة نافعة من فرائد جعبته ، ولاسيما ما كان منها في الأدب والتاريخ . والحق أن كتابه معرض حافل لجملة من صفحات مصر التاريخية ، قديمها ومعاصرها . وكثير من هذه المعاصرة ، كان هو أول من لاحظه بثاقب بصره ، ودقيق استقرائه .

ومن ذلك — مثلا — ما لاحظه عن الملك الناصر حسن ، سلطان عصره . فقد قال إنه وافق أباه الملك الناصر محمد بن قلاوون في سبعة أمور ، هي : اللقب ، وترك السلطنة ، والعودة إليها ، والجلوس على العرش في المرة الأولى يوم ١٤ في الشهر ، والجلوس في المرة الثانية يوم ٢ شوال ، وأنه وزر له متمم ورب سيف ، وأنه حكم مدة بغير وزير أو نائب سلطنة .

هذا ويحسن بنا أن ننوه في إيجاز ، بمشتملات الكتاب . فقد رتبه على مقدمة وسبعة أبواب ونتيجة ، وأن تنقسم النتيجة أيضاً إلى سبعة أبواب أخرى .

وفي المقدمة : أجمل ذكر عدة حوادث مما وقع بالديار المصرية من متسمات العدد سبعة .

وتحدث في الباب الأول : عن خاصية العدد سبعة وشرفه